

هكذا قال زرادشت

للفيلسوف الأولماني فرديريك نيتشه
ترجمة الأستاذ فليكس فارس

أعمق الساعات صمتاً

ماذا جرى لي يا صاحبي؟ لقد سادني الاضطراب فأضعت هداي وأراني مندفعاً بالرغم مني إلى الرحيل والابتعاد عنكم وآسفاه أجيل، على زارا أن يعود إلى عزلته، غير أن الدب يرجع إلى مغارته كثيراً حزناً. ماذا جرى لي ومن ترى يضطرنني إلى الرحيل؟

إنها (هي) مولاني الناضبة، لقد كلتني فأعلنت لي إرادتها وما كنت ذكرت لكم اسمها حتى اليوم، هي أعمق ساعاتي صمتاً وهي نفسها مولاني القاهرة، كلتني أمس

وسأقص عليكم ما جرى فلا أخفي عنكم شيئاً كيلا يقسو قلبكم علي وأنا أفأجشكم برحلي عنكم

أتململون ما هي خشية من يستسلم للكوى؟ إنه الدعر يستولى على الانسان من رأسه إلى أخمص قدميه، لأن أحلامه لا تبتدى ما لم تنسحب الأرض من تحته

إنني أضرب لكم أمثالا، فاصفوا إلي :
أمس عند أعمق الساعات صمتاً خلت الأرض من تحتي وبدأت أحلامي

وكان المقرب يدب على ساعة حياتي في خفقاتها، وما كنت سمعت من قبل مثل هذا السكوت يسود حولي ويروع قلبي

شهدتُ لقد شاهدت فيك صنوبراً

يدد ما في القلب من حشرات
وخلت النوايا في الجبال حواملاً
مظلاتهن الخضر والنضرات
وسرب نعام أبصر السيل هادراً
فأسند مرناً إلى الهضبات
هل السك من هامتك الخضر فأضح

أم السك من غاداتك العطيرات
لطبت أيا وادي الصنوبر وادياً
وبارككن الله من شجرات
عز الهميم الترفي « دمشق »

وهو يرتاض بذلك وزوجه المعجوز التي جاوزت الستين، ويروض أحفاده على حياة الجنود، والنرييون يعمدون أطفالهم صفراً ما يضطرون إليه كباراً، مجارين في ذلك غرائز الطبيعة؛ لأننا نشاهد الأولاد يركبون العصي استعداداً لركوب الجياد، ونرى البنات يكثرن الوقوف أمام المرأة تموداً لما يعملنه وهن أمهات

إن حياتنا الشرقية ركود وكسل، والحياة الغربية حياة نشاط وعمل؛ فالجامعة مثلاً إذا خرجوا إلى ظاهر المدينة للتنزه جلسوا على ضفة بردى أو النيل أو الفرات، وأخذ بعضهم يغلي شراب الجاء^(١)، وشرع الآخرون في الحديث أو الغناء، وإلى جانبهم مضطجعون، أو على الآرائك متكئون؛ وإذا خرجت رفقة من الأوربيين إلى التنزه أخذوا في الارتياض بأنواع الرياضات والألعاب، فهذا يلاكم وذا يصارع، وهذا عداء وذلك وثاب، وهذان فريقان يجران الحبل، أو يتقاذفان الكرة بالراحة^(٢) أو القدم؛ فالتنزه في عرفنا للطعام والشراب أو الاضطجاع أو السماع؛ وفي عرف النوبي للعدو والوثب والصراع، والحركة يراها بركة، والتواني والسكون هلكة

ثم التقينا على العين بإخوان لنا من رجال العراق، فتجاذبنا أطراف الأحاديث إلى أن تحدثنا عن الانقلاب العراقي الأخير فحمدنا الله على حدوثه، ولم يستشر نساد أو تم فتنة، وعلى إرساله لا تقاذ الموقف الخطير ذلك الرجل الإداري الحكيم، والجندى العربي الصميم « السيد جميل المدفسي » الذي قضى حياته في الدفاع عن حوزة العروبة، والذي أجمت الكلمة لسلامة دواعي صدره على الثناء عليه وعلى عبقته، والاعتصام في هذا المأزق الضيق بعروته، ثم ودعنا إخواننا بعد أن تروودنا من شرب الماء عبا، ونزلنا راجعين إلى حمانا ونحن نتع العيون بسواحر المناظر من وادي حمانا الذي غني باسمه من قبلنا لأميرتين، وكان منظر الصنوبر الأخضر على الجبال أروع هاتيك المناظر وأبدعها وأشدها للعين بهراً وللقلب سحراً، فقد جعل كل من أصحابي يترنم ببعض الأغنيات، وجعلني أرتجل الشعر مغنياً بهذه الأبيات:

أو أدى حمانا سقيت وأخفيت ربالك مغاني الحسن والحسنات

(١) وهو الشاي كما ذكره الامام البيهقي في كتاب الصيدنة

(٢) أي التنس، والراحة أخذها الانكليز من الرماية فقالوا racket

(أنظر معجم ديستر السكبير)

إن القيام بالكبائر صعب ، وأصعب من هذا أن يأمر الإنسان بها . إن ذنبك الذي لا يقتصر هو أنك ذو سلطان ولا تريد أن تحكم قلت : ليس لي صوت الأسد لأصدر أوامر

فقلت - كأنها تهمس همسا - : لا يثير العاصفة إلا الكلمات التي لا صوت لها ؛ إن من يدير العالم إنما هي الأفكار التي تنتشر كأنها محمولة على أجنحة الحمام . عليك أن تسير يا زارا كأنك شبح لا سيكون يوماً في آتى الزمان ؛ وهكذا تندفع في سبيلك إلى الأمام وأنت تتولى الحكم فقلت : إن الخجل يتولاني

فغادرت تقول ، ولا صوت لها : عليك أن تعود طفلاً فيذهب خجلك عنك ؛ إن غرور الشباب لا يزل مستولياً عليك لأنك بلغت الشباب متأخراً ، ولكن على من يريد الرجوع إلى طفولته أن يتغلب على شيبته واستغرقت في تفكيرى وأنا أرتجف ، ثم عدت إلى تكرار كلمتي الأولى قائلاً : لا أريد . وعندئذ ارتفع حولي صوت قهقهة مزقت قلبي وصعدت أحشائي

وقالت (هي) للمرة الأخيرة : أى زارا ، إن أعمارك ناضجة ، غير أنك لم تنضج أنت لأعمارك ، ف عليك إذن أن تعود إلى العزلة لتريد في قساوتك ليلاً

وعاد الضحك يتعالى ، فسمعت أنها انصرفت عني (هي) وعاد الصمت يسود بأعمق مما كان حولي ، أما أنا فبقيت منظرًا على الأرض ساجداً في عرق

والآن ، وقد أعلنت لكم كل شيء ، أيها الصحاب ، فهأنذا أعود إلى عزائي وما أخفيت عنكم شيئاً . أرحل عنكم بعد أن علمتكم أن تعرفوا من هو أشد الناس تكبهاً ومن يريد أن يكون كتوماً وأنسقاء ، أيها الصحاب ، إن لدي ما أقوله لكم أيضاً ، ولدي ما أبذه ، فلماذا لا أبذه الآن ؟ ألعلي أصبحت شحيحاً ؟

وما نطق زارا بهذا حتى أرقه سلطان حزنه لاضطراره إلى الرحيل ، فبكى متحجاً وما تمكن أحد من تمزيته ، ومع هذا ما أرحى الليل سدوله حتى ذهب زارا وحده تحت جناح الظلام متخلياً عن صحبه

فليكس فارس

(يتبع)

وسميتها (هي) تقول لي ، ولا صوت لها : إنك تعرف هذا يا زارا فصحت مذعوراً عند سماعي هذه النجوى وتساعد الدم إلى رأسي فغادرت هي تقول ، ولا صوت لها : أنت تعرف هذا يا زارا لكنك لا تعلمه .

فانقضت وأجيت بلهجة التحدي : - أجل إنني أعرف هذا ولكنني لا أريد أن أعلن ما أعرف

فقلت (هي) ولا صوت لها : أصبح أنك لا تريد ؟ لا تخف منك وراء هذا التحدي يا زارا

فأخذت أبكي وأرتمش كالطفل قائلاً : وبلاه ، أريد أن برج ، ولكن هل ذلك بإمكانى ؟ أغفنى من هذه المهمة لأنها في طاقتي

فقلت ، ولا صوت لها : وما أهميتك أنت يا زارا قل كلمتك وتحطم فقلت : أهي كلمتي ما يهم ، فن أكون أنا ؟ إنني أنتظر من أجدر مني بإعلانها وما أنا أهل لأصطدم بالتنتظر فأتحطم عليه فقلت ، ولا صوت لها : وما أهميتك أنت مادمت لم تصل إلى ما أريده من الانضاع ؟ وما أقسى ما يتشجع به الانضاع ، أصلب جلده .

فقلت : لقد تحمل جلدي انضاعى كثيراً ؟ فأنا ساكن عند ارتفاعي ولم يدلني أحد بعد على ذراه العاليات ، ولكنني عكنت من سبر أغوارى ومعرفتها .

فقلت ، ولا صوت لها : أى زارا ، وأنت المدة لنقل الجبال من مكان إلى مكان . أنا بوسمك أن تنقل أغوارك ومهابيك أيضاً ؟ فقلت : لم تنقل كلمتي الجبال بعد ، فإن ما قلته لم يبلغ حتى أذان الناس ، لقد أتيت إلى العالم غير أنني لم أتصل به بعد .

فقلت ، ولا صوت لها : وما يدريك .. ؟ إن الندى يتساقط على العشب في أشد أوقات الليل سكوتاً .

فأجبت : لقد هزأ الناس بي عندما اكتشفت طريقي ومشيت عليها ، والحق أن رجلى كانتا ترتجبان إذ ذاك ، فقال لي الناس : لقد ضللت سبيلك يا زارا ، بل أصبحت لا تعرف أن تنقل خطاك فقلت ، ولا صوت لها : وأية أهمية لسخريتهم ؟ لقد تخلصت من الطاعة يا زارا فوجب عليك أن تأمر الآن . أفلا تعلم أن من يحتاج الجميع إليه بأكثر من احتياجهم إلى أى شيء إنما هو من يقضى في عظام الأمور ؟